المكانة الادبية

لمدينة الاسكندرية فى عهد البطالمة

فى شهر ديسمبر من عام ٣٣٢ ق. م دخل مصر الاسكندر الأكبر ليطرد الفرس ويضم إلى ملكه أغنى وأخصب قطر فى العالم القديم ...

وبعد أن تم له النصر السريع على الفرس توجه إلى الصحــراء الغربية ليزور الإله (آمون) - وكان يمثل أكبر إله عنـــد اليونان - وذلك هو ما كان مشهوراً عندهم باسم « زوس Zeus كما كان يعرف عند الرومان باسم « جوبيتير Jupiter » .

ولعل الاسكندر الأكبر كان يرمى من وراء ذلك إلى غرض سياسى بعيد إذ أنه قبل تلك الزيارة قدّم إلى آلهة المصريين الضحايا ، وأظهر لقسمهم إجلالا واحتراماً كبيرين ، وكان ذلك على العكس مما عرف عن الفرس من تخريبهم المعابد المصرية واستهانتهم بديانة المصريين وآلهتهم ...

روى لنا أحد مؤرخى الرومان ، وهو المسمى (Quintus Curtius) ، أن الاسكندر أثناء عودته من معبـــد الإله (آمون) عرج على مكان مدينة الاسكندرية وأعجب بجمال الموقع إعجاباً شديداً ، ومنذ ذلك الحين ساورته الرغبة فى بناء مدينة تحمل اسمه فى هذا المكان . ولم يكن هناك فى تلك المساحة من الأرض إلا قرية ساحلية صغيرة ، يسميها الفراعنة (راكونداه) ويسميها اليونان (راكوتيس Rhacotis) ، وكان يسكن هذه القرية بعض الرعاة وصائدى الأسماك ، ويذكر لنا هـذا المؤرخ نفسه أن الاسكندر وجه نظره أولا إلى بناء تلك المدينة التى كان يحلم بها فى الجزيرة الصغيرة المواجهة لذلك المكان والتى كانت تعرف باسم (فاروس Pharos) ولكنه لم يلبث أن عدل عن ذلك الرأى ، إذ وجد أن بنـــاء مدينة فى هذه الجزيرة الصغيرة

لايمكن أن يحقق أغراضه التى يهدف إليها من عظمة ومجد مرجوين لتلك المدينة المنتظرة ، وعلى هذا فقد وجه عنايته إلى الجزء من الأرض المحصور بين البحر وبين بحيرة مريوط . ثم انه فى عهد البطالمة وصلت جزيرة (فاروس) بالشاطىء ، وذلك بواسطة اللسان من الأرض الذى يفصل الآن الميناء الغربى من الميناء الشرقى ...

فى عام ٣٣١ ق.م. عهد الاسكندر إلى أكبر مهندسيه (دينوقراطيس Dinocrates) مهمة تنفيذ مشروع بناء المدينة . ولقد كان لطبيعة المكان من الناحية الجغرافية أثر فى تخطيطها فجاءت فى أغلب مؤسساتها وفى تقسيمها على شكل مثلثات . ونحن حتى اليوم لانزال نرى أثر ذلك فى كثير من شوارعها وبيوتها ، وهناك أسطورة يتناقلها مؤرخوا الرومان قد صاحبت تنفيذ مشروع بناء المدينة . فهم يروون أن (دينوقراطيس) خطط المدينة أولا بواسطة دقيق الشعير ، إما لأن ذلك من عادة اليونان فى تخطيط مدنهم وإما لأن الجير أعوز المهندس إذ ذاك . فجاءت جماعات الطير وأكلت هذا الدقيق ، وقد اختلف الناس حينئذ فى تفسير هذه الظاهرة وتباينت فيها آراء المنجمين ففسرها بعضهم تفسيراً يدعو إلى التشاؤم وكاد العمل يقف لولا أن جاء أحد القساوسة المصريين ورأى فى تلك الظاهرة فألا حسناً إذ قال أن هذه المدينة سيتم بناؤها ، وسيرتفع شأنها ، وستكون مصدر خير ونعمة لكثير من الناس . ونحن لاتعنينا هذه الأسطورة ولا قيمتها التاريخية بقدر مايعنينا درس عقلية القدماء وطريقتهم فى فهم بعض الظواهر الطبيعية ...

لقد تم بناء الاسكندرية وتركزت فيها بسرعة حركة ثقافية من علم وأدب وفن ، ثم أنها قد بلغت أوج عظمتها فى فترة يسيره من الزمن ، ولو كان صاحب المشروع حياً إذ ذاك لوجد أن هذه المدينة قد تجاوزت بكثير ماكان يساوره بالنسبة لها من أحلام . ولقد اتجهت عناية القائمين بالأمر أولا إلى الناحية الثقافية ، ففى نفس الوقت الذى تأسست فيه مدينة الاسكندرية تأسس فيها معهد للعلم فاشتهر بمدرسة الاسكندرية إن أحببنا

أو بجامعة الاسكندرية إن أردنا . وبجانب هذه الجامعة أنشئت دار للكتب ومساكن للطلبة والأساتذة ، ومراصد لملاحظة النجوم والكواكب السيارية ، ومعامل للعلوم التجريبية .

ولم يجد ملوك البطالمة الأوائل صعوبة فى استدعاء العلماء من مختلف البلاد وفى مختلف الفنون كى يعمروا جامعة الاسكندرية وينشروا لواء معارفهم على مدن العالم المتحضر إذ ذاك . وتلك ظاهرة امتاز بها الفاتحون من اليونان على الرومانيين الفاتحين فيما بعد ، فبينما نجد هؤلاء يحاولون جهدهم تركيز سلطانهم السياسى والأدبى فى روما وحدها فيجذبون إليها العلماء من سائر الأقطار ، والآثار من سائر الفنون . إذ نرى أولئك يهتمون بإنشاء المدن والمؤسسات العلمية والفنية فى سائر البلاد التى يفتحونها ومن هنا تتحقق العبارة المشهورة التى قالها أحد النقاد الفرنسيين (لقد غزا اليونان الدنيا وأعينهم فى السماء . أما الرومان فقد غزوا الدنيا وأعينهم فى الأرض) .

وهناك عوامل عدة قد ساعدت جامعة الاسكندرية على تحقيق أغراضها فى ظرف وجيز من الزمن .

فمن هذه العوامل صلاحية البيئة من الناحية العلمية وما كانت تمتاز به من حرية واستقلال واستقرار وهنا لانجد بدأ من الإشارة إلى الأثر العميق الذى تأثرت به جامعة الاسكندرية من جامعات مصر الفرعونية ، وخصوصاً جامعة هليوبوليس وجامعة ممفيس : الأولى بعلومها التجريبية كالحساب والهندسة والطب والفلك ، والثانية بعلومها النظريه كالفلسفة والدين . وقد انتقل هذا الاثر إلى جامعة الاسكندرية إما عن طريق علماء اليونان أنفسهم الذين جاءوا من قبل يدرسون العلم فى هاتين الجامعتين ، واما عن طريق قساوسة الفراعنة الذين كانوا على اتصال مباشر أو غير مباشر بأساتذة العلم فى جامعة الاسكندرية أيام عهدها الاول .

ومن هذه العوامل أيضاً ماعرف عن ملوك البطالمة من كرم وسخاء وخصوصاً بطليموس الاول والثانى والثالث اذ كانت الارزاق تجرى عن سعة

على الطلاب والأساتذة ، وكانت الآلاف المؤلفة تنفق على شراء الكتب وآلات الرصد وعمل التجارب . وان من يدرس بدقة تاريخ هذه الملوك ويدرك مبلغ ما كانوا ينفقونه من مال على الجامعة ولوازمها ومبلغ ما كانوا يقومون به من تشجيع أدبي ، ليفهم في غير عناء إلى أي حد كان هؤلاء الملوك يهدفون إلى أن تسود مدينة الاسكندرية جميع مدن العالم المتحضر إذ ذاك . ولقد وجدت بينهم وبين غيرهم من الملوك المعاصرين شبه منافسة على تلك السيادة الأدبية . وقد أعانهم على ذلك بلا شك ماوجدوه في مصر من كنوز علمية نفيسة وكنوز مالية خصبة .

وهناك عامل آخر خارجي ولكنه لايقل أهمية عن العاملين الاولين ، ذلك هو الضعف المسيطر على مدن اليونان الجامعية في ذلك الوقت سواء أكان ذلك في بلاد اليونان أنفسهم مثل مدينة أثينا أم في مستعمراتهم المنتشرة في حوض البحر الأبيض المتوسط مثل مدينة (سيراكوزا Syracusae) في جزيرة صقلية ومدينة « قورينCyrene» في شمال أفريقيا، اذكانت هذه المدن في شبه انحلال سياسي وليس من شك في أن الضعف السياسي يصحبه غالباً ضعف أدبي

كان الانحلال السياسي اذن في بلاد اليونان وفي مستعمراتهم عاملا قوياً من عوامل الرقي الأدبي لمدينة الاسكندرية . وها هي بعض الأمثلة لتبين إلى أي حد قد استفادت مدينة الأسكندرية من هذا الانحلال الخارجي : المثال الأول « دمتريوس الفاليرى Demetrius Phaleri » وهو من رجال السياسة والأدب في أثينا ، كان هذا السياسي خطيباً من أقدر الخطباء ومؤرخاً من أكابر المؤرخين ، ولكن جرائم السياسة قد لحقته فثار ضده الأثينيون ، واضطهدوه فلم يجد بداً من الفرار ففتحت له مدينة الاسكندرية أبوابها ، وقدم اليه بطليموس الأول معونته الأدبية والمادية فأقام في كنفه حتى مات في عام ٢٨٣ ق . م أي قبل موت الملك بعام واحد .

ومن هذه الأمثلة أيضـاً « كليومين الثالث Cleomenes III » وكان ملكا لأسبارطه. ولم تكن شهرته في الأدب أقل من شهرته في السياسة ولكنه دفع بدوره أيضاً ضحية من ضحايا السياسة وعدم استقرارها في أسبارطه إذ أنه حين لم يتمكن

من مقاومة الثائرين عليه ، فر بدوره إلى الأسكندرية ومكث بها حتى نهايته المؤلمة في عام ٢٢٢ ق . م .

وكذلك نجد « ثيوكريتس Theocritus » وهو من أكبر شعراء اليونان في العالم القديم ، نشأ في مدينة (سيراكوز) في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد . وكانت هذه المدينة مستعمرة يونانية مزدهرة في جزيرة صقلية . ويعتبر هذا الشاعر بحق المبتكر الأول لنوع جديد من الشعر عرف بشعر الرعاة . وكان تأثير هذا النوع من الشعر بعيد المدى عند شعراء الرومان وخصوصاً [فيرجيل Virgilius] أكبر شاعر في روما . انتقل « تيوكريت » إلى جزيرة [كوس Kos] وهي من جزر بحر إيجه ؛ ثم منها إلى جزيرة سيسيل يطلب معونة الملك (هيرون Hiéron) ملك سيراكوز Syracusae ، ولكن مدينة الاسكندرية كانت أوسع من غيرها رحاباً لهؤلاء الأئمة المضطهدين ، وملوكها أكثر عوناً ومدداً من غيرهم من الملوك ، فجاء « تيوكريتس » إلى الاسكندرية واستقر بها بعد أن حبب له فيها المقام .

ومن هذه الأمثلة أيضاً (كاليماخوس Callimachos) وهو من الأدباء البارزين والمبتكرين في العالم القديم ، نشأ في (قورين) وكانت مستعمرة يونانية شمال أفريقيا في غرب مصر ، ثم انتقل إلى أثينا وأقام فيها طويلاً ، وقد مرت عليه أعوام من الضنك والبؤس لم تنته إلا بإيواء ملك الاسكندرية إياه ، فأدخله مكتبة الجامعة كمشرف على جزء كبير منها ، وربما كان مديراً عاما للمكتبة بأكملها .

ولم تقف همة ملوك الاسكندرية وعنايتهم عند حد إيواء الفارين من البؤس والمضطهدين من السياسة ولكنهم كانوا يبعثون برسلهم لاستدعاء أئمة العلم وسادة الأدب من مختلف البلاد ؛ باذلين في سبيل ذلك كثيراً من وسائل الاغراء .

ولعل أوضح مثال لذلك هو (فيليمون Philemon) ، وكان شاعراً مسرحياً من أكبر شعراء الكوميدى ، نشأ في (كيليكيا) وكانت مستعمرة

يونانية أيضاً فى آسيا الصغرى ، دعاه بطليموس إلى الحضور الى الاسكندرية فلبى الدعوة وجاء ينشر معارفه بين الاساتذة والطلاب ، ويعدُّ هؤلاء وأولئك الى التوسع فى ميدان الأدب من ناحية النقد والانتاج .

هؤلاء العلماء وكثير غيرهم يضيق هذا المقال عن التعريف بهم قد وجدوا فى الاسكندرية مكاناً خصيباً فألقوا فيه بذور معارفهم ، فنبتت ، وسرعان ما أينعت وأثمرت .

بهذه العوامل مجتمعة قد تركزت فى مدينة الاسكندرية حركة أدبية علمية واسعة النطاق ، وبدل أن كانت تتلقى معارف اليونان وتحذو فى الدرس حذوهم ، بدأت تنقد هذه المعارف ؛ ثم تؤلف وتبتكر فأصبح لها فى الطب وفى الادب وفى الفلسفة وفى الرياضة وفى الجغرافيا آراؤها الخاصة ومذاهبها الجديدة . ولهذا فقد سادت مدينـــة الاسكندرية غيرها من المدن الجامعية المعاصرة ، وأصبح يطلق عليها بحق (الوارثة لمدينة أثينا) كما يسميها بعض العلماء الأوربيين ، أو (أثينا الشرق) كما يسميها البعض الآخر .

منذ ثلاثة أعوام ألقى أحد الأساتذة فى جامعة السوربون . وهو اختصاصى فى الآداب القديمة . محاضرة عن الثقافات فى العالم القديم . وعن مراكزها الرئيسية المختلفة : تتلخص هذه المحـــاضرة فى أن البحر الأبيض المتوسط كان المحور الاساسى لتلك الثقافات وأن مراكزها تدور حوله من وقت الى آخر فأول مركز ثقافى هو مصر الفـــرعونية وكانت مظاهر تلك الثقافات ممثلة فى جامعاتها :هليوبوليس — ممفيس ـ طيبة . ثم اتجه ذلك التيار الثقافى بعد ذلك إلى الغرب فاحتضنته اليونان وتركز أولا فى مدينة أثينا ثم انتشر بعد ذلك فى المستعمرات اليونانية العديدة .

ومنذ نهاية القرن الرابع قبل الميلاد عاد ذلك التيار مرة أخرى الى مهده الاول ولكنه تركز هذه المرة فى مدينـــة الاسكندرية ، واستقر بها حتى أوائل القرن الاول من ميلاد المسيح . وأخيراً اتجه مرة ثانيـة إلى الغرب ولكنه استقر فى مدينة روما . ودام بهـا حتى أواخر القرن الرابع بعد الميلاد .

ومن ذلك نرى أن مدينة الاسكندرية قد لعبت فى نشر الثقافة القديمة دوراً له خطره ، وإن من يدرس تاريخ روما وتاريخ الأدب اللاتينى ليدرك إلى أى حد كان كتاب الرومان وأدباؤهم متأثرين بثقافة الاسكندرية فى دراستهم وفى إنتاجهم

لم تكن الدراسة فى جامعة الاسكندرية مثل مانعهده الآن من الدراسة فى الجامعات الحديثة . وها هى صورة من نظـام الدراسة فى تلك الجامعة نقلها عن أحد المؤلفين الفرنسيين المعروف باسم (كوات Couat) من كتابه (La poésie alexandrine sous les trois primiers Ptolémées) . يقول هذا الكاتب بعد أن تكلم طويلا عن جامعة الاسكندرية .

« ولقد كان أئمة الجامعة أساتذة ومؤلفين فى نفس الوقت . وكان لاشهر العلماء فيها طلاب يفدون ليتلقوا عنهم القواعد العلمية ، وأشهر علماء النحو فى ذلك العصر كانوا طلاباً طوراً وأساتذة طوراً آخر . وبعضهم قضى كل حياته بين جدران الجامعة ولم تعهد مدرسة أخرى أكثر حرية فى دراساتها من الدراسة فى تلك الجامعة ، فلم يكن هناك مانعهده الآن فى مدارسنا الحديثة من الاضطرار فى الحضور ومن المواظبة المنظمة بل كانت هناك أحاديث ذات صبغة جدية ، وأبحاث يشترك فيها الجميع . واحترام طبعى من الصغار إلى الكبار وتمسك وثيق بتقاليد أدبية وعلمية ، تلك هى طريقة الدراسة فى الجامعة كما أتصورها ، ومع ذلك فقد كانت هناك دروس متوالية لعدد من الشبان ، بل ولعدد من الاطفال ، وأكثر العلماء شهرة لم يكن يترفع عن اعطاء مثل هذه الدروس ولا عن مخالطة هؤلاء الصغار وتعليمهم بطريقة مباشرة » .

هذا هو نظام الدراسة فى جامعة الاسكندرية القديمة كما يصوره لنا هذا الكاتب الفرنسى ، ولو أضيف الى ذلك ماعرف من نظام الحياة فيها وما كان هناك من انقطاع تام للدرس والتحصيـل حيث يقطن الاساتذة والطلاب فى مساكن خاصة وتجرى عليهم الارزاق عن سعة من خزانة

الدولة . وهم بمعزل تام عن مشاغل الحياة ومشاكلها الخارجية . لو أضيف ذلك الى وصف الكاتب الفرنسى لاستطعنا أن نجد — فى يسر — صورة مشابهة تماما لجامعة الاسكندرية القديمة فى الجامعة الازهرية قبل أن ينالهـــا هذا النظام الحديث ، أى قبل ربع قرن تقريبا ...

وليس من شك فى أن أهم مؤسسة ألحقت بالجامعة ، وكان لهـا أبعد الاثر فى رفع شأنها ونشر لواء المعارف ، هى المكتبة ، وكان الغرض من إنشائها هو أن تفى بحاجة الاساتذة وتعين الطلاب والباحثين على الدرس والتحصيل . ونحن لانستطيع أن نمضى فى هذا البحث دون أن نقف وقفة قصيرة عند هذه المكتبة لنتبين قيمة الثروة الادبية والعلمية التى كانت تحتويها هـــذه المؤسسة بين جدرانها : كانت مكتبة الاسكندرية القديمة تعتبر أغنى مكتبة فى الدنيا حينذاك . اذ لم يتيسر لأى مكتبة أخرى فى أى بلد آخر أن تجمع من المجلدات العلمية والآثار الفنية بقدر ماجمعت مكتبة الاسكندرية وفى هذه المكتبة كان يجتمع الادباء والعلمـــاء لتنظيم الكتب ثم شرحها والتعليق عليها وقد بلغ عدد المجلدات التى كانت تحتوى عليها ٧٠٠,٠٠٠ مجلد . وهذا عدد عظيم جداً إذا قيس بغيره مما كانت تحتوى عليه المكتبات فى ذلك الزمن .

ولكى ندرك قيمة هذه الثروة الفنية ، ومبلغ هذا العدد الضخم من المجلدات ، يجب أن نقف لحظة نتحدث فيها بلغة الارقام ، ولكن قبل أن نذكر هذا الاحصاء عما هو موجود الآن من مجلدات فى مكتبات الاسكندرية وفى مكتبات القاهرة ، نود أن يعرف القارىء أن مصدرنا فى ذلك هو مايوجد من احصاء فى المكتبة العامة لجامعة فاروق

والفضل فى هذا يرجع أولا الى مدير هذه المكتبة ، إذ قد أضاف على الاحصاءات الرسمية ماورد على المكتبات من مجلدات أخرى ، وأظهر من العناية وحسن الاستعداد ماجعلنا نرجو أن تكون هذه الروح ، وذلك الاستعداد متوفرين عند كل المشرفين على دور المكتبات العامة .

يوجد فى الاسكندرية الآن المكتبة العامة ومكتبات كليات جامعة فاروق الاول .

ثم مكتبة المتحف اليونانى الرومانى وأخيرا مكتبة البلدية .

أما المكتبة العامة ومكتبات كليات الجامعة فهى تضم ١٠٠٫٠٠٠ مجلد موزعة على حسب الترتيب الآتى :

	باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الاوربية	المجموع الكلى
١ — المكتبة العامة	٢١٥٠٠ مجلد	٥٢٠٠٠ مجلد	٧٣٥٠٠ مجلد
٢ — مكتبة كلية الآداب	٢٥٠٠ مجلد	٥٠٠٠ مجلد	٧٥٠٠ مجلد
٣ — مكتبة كلية التجارة	٢٠٠ مجلد	٤٥٠٠ مجلد	٤٧٠٠ مجلد
٤ — مكتبة كلية الحقوق	١٦٠٠ مجلد	٢٥٠٠ مجلد	٤١٠٠ مجلد
٥ — مكتبة كلية الهندسة	٥٠٠ مجلد	٣٥٠٠ مجلد	٤٠٠٠ مجلد
٦ — مكتبة كلية الزراعة	٤٠٠ مجلد	٢٠٠٠ مجلد	٢٤٠٠ مجلد
٧ — مكتبة كلية العلوم	١٠٠ مجلد	٣٧٠٠ مجلد	٣٨٠٠ مجلد
	٢٦٨٠٠ مجلد	٧٣٢٠٠ مجلد	١٠٠٠٠٠ مجلد

وأما مكتبة المتحف اليونانى الرومانى فيوجد بها ٥٠٠٠ مجلد كلها باللغات الأوروبية .

وأما مكتبة البلدية ففيها ٦١٠٨٨ مجلدا ، منها ٢٧٦٩٣ مجلداً باللغة العربية واللغات الشرقيه و ٣٣٣٩٥ مجلدا باللغات الاوروبيه .

ومعنى هذا أن كل مافى مدينه الاسكندرية من مكتبات عامه لايحتوى إلا على ١٦٦٠٨٨ مجلدا أى مايقل عن $\frac{1}{4}$ مجلدات مكتبه الاسكندرية القديمه .

ويوجد فى القاهرة مكتبتان عامتان : المكتبه العامه لجامعة فؤاد الاول وفروعها فى مختلف الكليات ، ثم دار الكتب المصرية العامة .

أما مكتبة جامعة فؤاد الأول وفروعها فهى تحتوى على ٢٧٩٦٨٥ مجلدا موزعه كما يأتى .

	باللغة العربية واللغات الشرقية	باللغات الاوربية	المجموع الكلى
١ ــ المكتبه العامه ٢ ــ مكتبه كليه الآداب	٢٧٢٨٢ مجلدا	١٣٢٣٢١ مجلدا	١٦٩٦٠٣ مجلدا
٣ ــ مكتبه كليه التجارة	٢٣٤١ مجلدا	١١٧٣٣ مجلدا	١٤٠٧٤ مجلدا
٤ ــ مكتبه كليه الحقوق	٦٢٢٨ مجلدا	١٧٢٤٤ مجلدا	٢٣٤٧٢ مجلدا
٥ ــ مكتبه كليه الهندسه	٥٩٨٨ مجلدا	٣٤٥٣٢ مجلدا	٤٠٥٢٠ مجلدا
٦ ــ مكتبه كليه الزراعه	٢٠١٠ مجلدا	٨٧٠٠ مجلدا	١٠٧١٠ مجلدا
٧ ــ مكتبه كليه العلوم	١٢٢٣ مجلدا	١٨٥٢١ مجلدا	١٨٧٤٤ مجلدا
٨ ــ مكتبه الاحياء المائيه	١٣ مجلدا	٢٥٤٩ مجلدا	٢٥٦٢ مجلدا
	٥٤٠٨٥ مجلدا	٢٢٥٦٠٠ مجلدا	٢٧٩٦٨٥ مجلدا

ومعنى هذا أن مكتبة جامعة فؤاد الأول بما فيها من مكتبات كلياتها المختلفة لايزيد عدد مجلداتها عن ١/٣ مجلدات مكتبة الاسكندرية القديمة إلا قليلا .

أما دار الكتب المصرية العامة فهى تحتوى على ١٧٣و٥٩٥ مجلدا ، منها ٢٢٨ر٣٦٠ باللغة العربية واللغات الشرقية ، و٣٦٦ر٨١٣ باللغات الأوروبية .

ومعنى هذا أيضا أنها تقل عن مكتبة الاسكندرية بمقدار ١٠٤ر٨٢٧ مجلدا ، وأخيرا فكل ماأحصيناه فى جميع هذه المكتبات من مجلدات لايزيد عن ١ر٠٤٠ر٩٤٦ مجلدا ، وبالتالى فهو لايزيد عن مجلدات مكتبة الاسكندريه القديمة إلا بمقدار ٣٤٠ر٩٤٦ مجلدا .

ولنعد الآن بعد هذا الاحصاء إلى مكتبة الاسكندرية القديمة :

هـذه المجلدات العديدة التى جمعت بفضل عناية الملوك من مختلف بـلاد العالم القديم ، كانت موزعة بين مؤسستين : أما المؤسسة الأولى ، وهى جزء من الجامعة ، فكانت تعتبر المكتبة الرئيسية ، وتحتوى على ٤٠٠٫٠٠٠ مجلد .

وأما المؤسسة الثانية ، وهى جزء من معبد الآله « سيرابيس ـ Sérapis » فكانت تعتبر المكتبة الفرعية ، وتحتوى على ٣٠٠٫٠٠٠ مجلد . وقد زاد عدد مجلدات هذه المكتبة الفرعية زيادة كبيرة بواسطة المكتبة التى نقلها أنطونيوس من مدينة فى آسيا الصغرى ، كانت تدعى فى ذلك الوقت برجامم ـ Pergamum ، وأهداها إلى كليوباتره .

ولقد بلغت مكتبة الاسكندرية بفرعيها من الثروة العلمية ، ومن دقة النظام ، ومن حسن الادارة ، ومن كثرة النفقات درجة لاتقارن فى ذلك العالم القديم ، حتى لقد اتهم الكاتب المشهور «سنيكا ـ Seneca » وهو أحد أدباء الرومان ومن أكبر فلاسفتهم ، الغاية من تلك المكتبة فهو يرى أنها تمثل مظهرا من مظاهر البذخ والثراء لملوك الاسكندرية . ولو أن هـذا الكاتب اللاتينى عاش ربع قرن فقـط أكثر مما عاش ، لرأى بنفسه الخدمات العلمية الجليلة التى أدتها البقية الباقية من مكتبة الاسكندرية إلى مكتبة روما : ذلك أنه فى أثناء حكم الامبراطور « دومتيانس Domitianus » شبت النار فى روما ، وكان مما ذهب ضحية لذلك الحريق المكتبات العامة فى العاصمه ، ولم يجد الامبراطور حينئذ بدا من أن يرسل بعثة خاصة إلى الاسكندرية مهمتها الوقوف على مافى مكتبتها من مجلدات ، ثم نسخ مايمكن نسخه منها ، وتصحيح مابقى لديهم من كتب ، لكى يكون ذلك نواة لاعادة مكتبة روما ، ولم يكن فى الاسكندرية حينئذ إلا المكتبة الفرعيه فقط .

استمرت مكتبه الاسكندرية منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد حتى حوالى منتصف القرن الأول قبل الميلاد وهى تمثل جزءا كبيرا من النشاط العلمى والثقافه الانسانيه ، لا فى جامعه الاسكندرية وحدها بل فى العالم المتحضر إذ ذاك .

ولقد أدرك ملوك البطالمه قيمة هذه المهمة فكانوا يختارون لادارة شئونها وللاشراف عليها اكبر أساتذة العلم وأئمة الأدب كى يزيدوا فى ثروتها العلمية بما ينتحونه من مؤلفات ، وفى ثروتها الأدبية بما كان لهم من شهره ومكانة بين المعاصرين .

وأول من عين لادارة شئون هذه المكتبة هو «زينودوتس Zenodotos» من مدينة كانت تعرف قديما باسم « Ephesus » فى آسيا الصغرى ، وقد اشتهر بمكانته فى الشعر القصصى وكان أول أديب يتصدى لنقد أشعار « هوميروس _ Homerus » الشاعر اليونانى العظيم .

ثم جاء من بعده « أبوللونيوس _ Apollonius » وقد نشأ فى الاسكندرية ثم ذهب إلى جزيرة رودس على أثر خلاف بينه وبين « كاليماخوس » ولكنه عاد ثانية إلى وطنه كى يتولى شئون المكتبة ، وينتج للأدب كتبا عديدة .

وبعد هذين الأديبين جاء العالم الكبير المدهش « إراتوستينيس Eratosthenes » الذى ملأت شهرته الدنيا وغزت معارفه الأرض فكان يعتبر وحده دائرة معارف ، وهو فوق مكانته فى الفلسفة ، وفى الفلك ، وفى الجغرافيا قد كتب كثيرا فى النقد وفى الأدب .

وهكذا قد توالى فى الاشراف على مكتبة الاسكندرية عالم بعد عالم

أو أديب بعد أديب حتى جاء قيصر إلى الاسكندرية ممثلا لسلطان روما على رأس كتائبه الرومانية .

وفى ذلك الوقت كان الخلاف شديدا بين كليوباترة وأخيها على ملك مصر ، وأعلن قيصر بأنه إنما جاء لحسم النزاع وللتوفيق بين المتخاصمين ولكنه أظهر من التحيز لكليوباتره ما اعتبره أهل الاسكندرية ماسا بكرامتهم فأجمعوا أمرهم ، وثارت ثائرتهم ، وأحاطوا بقيصر وجنوده ، وكاد الأمر ينتهى لهم ، لولا استماتة قيصر والتجاؤه إلى أعمال التخريب فكان مما صنع أن أعطى الأوامر لجنده بحرق الأسطول المصرى ، وكان مرابطا فى ميناء الاسكندرية قريبا من الحى الآهل بالجامعه ، وحصل هذا فى عام ٤٧ ق م . انتقل اللهب من الأسطول إلى المكتبة الرئيسية فأتى عليها وذهبت ضحيته ثروة علمية وأدبية لاتعوض ، وكانت هذه أولى وأعظم النكبات التى أصيبت بها جامعة الاسكندرية . ولقد روى كتاب الرومان أنفسهم هذا الحادث بشىء من الأسف .

بقيت المكتبة الفرعية وحدها ، وكانت كما ذكرنا جزء من معبد الآله « سيرابيس » . ونستطيع أن نعتبر هذا الحادث حدا فاصلا بين عهدين متباينين : فى العهد الأول منهما كانت الاسكندرية تعتبر أهم مركز للنشاط الثقافى فى العالم المتحضر إذ ذاك ، وفى الثانى منهما بدأ نجم الاسكندرية يأفل وسيادتها الأدبيه تضعف ، إذ أن روما بدأت تستلفت الأنظار ، وتشغل رجال العلم والأدب كما كانت تشغل رجال السياسة والحكم . ومع ذلك فقد نهضت الاسكندرية فى عهد كليوباتره واستطاعت أن تسترجع مجدها السياسى ، وتفرض سلطانها على الحوض الشرقى من البحر الأبيض المتوسط ، فكانت أكبر منافس لروما فى سيادة العالم إذ ذاك ، ولكننا إذ نذكر هذا نقرر فى نفس الوقت

أن هذه النهضة كانت أشبه بنهضة المحتضر ، فكان تتابع الأحداث السياسية يستنفد مجهود الدولة ، ولذا لم يفكر أولوا الأمر فى إعادة المكتبة ، وبقيت الجامعة بما فيها من طلاب وأساتذة معتمدة على المكتبه الفرعيه فقط .

استمرت هذه المكتبة بدورها تمثل نشاطا أدبيا محدودا حتى عام ٣٨٩ بعد الميلاد ، وحينئذ قامت فى الاسكندريه ثورة داخلية عنيفه نستطيع أن نسميها ثورة دينية ، إذ أنها كانت بين المسيحية والوثنية . انتهت هذه الثورة أيضا بأعمال التدمير ، وكانت المكتبه ومعها المعبد لديني ضحية لذلك التخريب .

لقد كان هذا الحادث مثارا لخلاف طويل وآراء متباينه بين المؤرخين فمنهم من ينسبه إلى العرب أيام فتحهم لمصر ، ومنهم من ينسبه إلى المسيحيين أثناء الثورة التى أشرنا اليها ، ونحن أمام هذا الخلاف لانستطيع أن نمضى سريعا دون ابداء مالدينا من وجهة نظر

ونحن إذ نساهم برأى فى هذا الخلاف إنما نعتمد فى ذلك على تتبع الحوادث وفهم الوقائع التاريخيه بعد ربطها جميعاً بعضها ببعض ، ولسنا نبغى من وراء هذا غير الانصاف العلمى .

إن من ينسب هذا الحادث ، من المؤرخين إلى العرب لايعتمد فى ذلك على دليل مادى ، بل على العكس من ذلك نستطيع أن نذكر من الأدلة مايكفى للبرهنة على أن ضياع هذه المكتبه كان نتيجة لثورة المسيحيين ضد الوثنيين .

أولا : كان طابع الثورة كما رأينا طابعاً دينياً ، وكان أهم مظاهرها فى المدينة هو التخريب ، وليس من شك فى أن الهدف الاول لذلك التخريب هو معابد الآلهة الوثنية ، ثم تأتى بعد ذلك معاهد العلم التى كانت تدرس فيها تعاليم الديانة الوثنية ، أو تحفظ فيها آثار تلك التعاليم ، واذن فقد كانت مكتبة

الاسكندرية الثانيه هدفا مزدوجا لتلك الثورة ، اذ أنها كانت تكون جزء من معبد الاله « سيرابيس » ، أكبر اله وثنى اذ ذاك ، وكانت فى نفس الوقت مستودعا هاما لآثار تلك الديانه الوثنيـة . ثم أن أعمال التخريب هده لم تقف عند هذا الحد وحده ، بل تناولت غيره من المعابد الوثنية فى سائر المدن المصرية ، من الاسكندرية حتى جزيرة الفيلة، فى أقصى الحدود المصرية من الجنوب .

وأنه لمن الحق أن نقرر أن هذه الاعمال كانت تصدر عن المسيحيين بدافع الايمان الكامل بمبادىء المسيحية ، والعمل على نشرها ، ولن يتم لهم ذلك الا اذا زالت آثار الوثنية التى لم تكن فى عقيدتهم الا كفراً وضلالا .

ثانيا : لم نعثر حتى اليوم على أثر يثبت أن هـذه المكتبة كانت موجودة فى الفـترة التى بين الثورة المسيحية فى الاسكندرية وفتح العرب لمصر أيام عمر بن الخطاب .

ثالثاً : ان ماعرف عن سياسة العرب فى فتوحهم لايدل على أنهم كانوا يلجئون الى أعمال التخريب فى المعابد ، بل على العكس كانوا يحاولون جهدهم الاستيلاء على الكنائس والمعابد سليمة كى تحول فيما بعد الى مساجد ، وقد رأينا من آثار ذلك فى بلاد الشام وفى القسطنطينية ، وفى الاندلس . ولعل هذا المظهر وحده هو الذى دعا كتاب الغرب الى أن يقفوا من ذلك موقف الحيرة والتردد .

هذه هى النهـاية المحزنة لمكتبة الاسكندرية بفرعيها ، غير أن ذلك لم ينقص شيئا من القدر العظيم الذى ساهمت به فى رفع مكانة الاسكندرية الادبية أيام البطالمة ، وكذلك لم تنس الاجيال القادمة ذلك الدور الهام الذى قامت به على مسرح الثقافة الانسانية .

لقد أشرنا فيما مضى الى أن حضارة الاسكندرية قامت على أسس حضارتين

قديمتين . أولاهما عن الحضارة المصرية ، والاخرى هى الحضارة اليونانية .

وفى الحق أن جامعة الاسكندرية قد استطاعت أن تمزج هاتين الحضارتين وتستخلص منهما حضارة جديدة فى أفكارها ومظاهرها ، ولذا فقد نسبها العلماء الى الاسكندرية واستمروا يطلقون عليها « الثقافة الاسكندرانية » .

هذه الثقافة الجديدة فتحت للعلماء آفاقا واسعة فى ميادين المعارف الانسانية ، فهم بعد أن فهموا القديم نقدوه ، ثم أنهم لم يقفوا عند هذا الحد بل ابتكروا وأنتجوا . وهكذا أصبح لجامعة الاسكندرية فى الدراسة اتجاهات أخرى . وفى الانتاج مذاهب خاصة ، وذلك بفضل ماوصل اليه العلماء من اكتشاف ، سواء أكان فى ميدان المعرفة النظرية كالأدب والفلسفة ، والرياضة ، والجغرافيا ، أم فى ميدان المعرفة العملية كالطب ، والهندسة .

وليس من السهل أن نرسم فى هذه العجالة الخطوط الأساسية لكل هذه العلوم ، ثم نبين مدى ماتمتاز به ثقافة الاسكندرية فى كل هذه النواحى ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نمضى سريعاً دون أن نقف وقفة يسيرة فى أحد هذه الميادين العلمية فنحلله لنتبين مبلغ نشاط جامعة الاسكندرية فى هذه الناحية ومقدار ما امتازت به من اتجاهات ومذاهب ، ونعنى بذلك ، الميدان الأدبى بمعناه الضيق ، أى فن القول .

واذا كنا قد تخيرنا هذا الميدان من ميادين المعرفة عند القدماء ليكون نموذجاً لغيره فذلك لأنه فى الواقع يعتبر أهم مظهر من مظاهر الثقافة عند القدماء . كانت الغاية الأولى من الأدب عند اليونان هى خدمة السياسة ، والدين ، والمجتمع وما عدا هذه النواحى الثلاث فكان يعتبر شيئا ثانويا فى حياة الأدب . وعلى هذا الأساس كان مظهر رقى الأدب ، وعظمة الأدباء . جاءت من بعد ذلك جامعة الاسكندرية فرفضت هذه القواعد . وحطمت تلك الأغلال ، واستكثرت على المخيلة الانسانية والاحساس الفنى أن يقفا فى هذه

الدائرة الضيقة المحدودة ، فسمت بالأدب الى الأجواء العليا ، وذهبت به إلى الآفاق البعيدة ، وجعلته يشرف على كل فروع المعارف الانسانية ، فيعجب بالجمال فى كل منها ، ويساهم بقسط فيما ينتج بعد ذلك من ثمر .

من ذلك أن أصبح الحب الموضوع الرئيسي للادب عند أدباء الاسكندرية فتناولوه بالوصف والتحليل ، وأكثروا من القول فيه ؛ حتى لقد كاد يطغى على غيره من الموضوعات ويستقل بنتاج خيال الأدباء .

لقد أدرك هؤلاء الأدباء القيمة التى يمكن أن يكتسبها الأدب ، والشعر بوجه خاص ، حين يستعيض عن موضوعات البطولة ، التى لا يحس بها ولا يدركها الا طبقة من الناس محدودة ممتازة ، بموضوعات الحب التى يحس بها ويدركها كل طبقات الشعب ، وفى ذلك بلا شك ، كسب عظيم للادب . ثم أنهم فوق ذلك قد حاولوا أيضا ، ونجحوا فى تلك المحاولة الى حد ما ، أن يدخلوا العلم فى الشعر ، فكان ذلك بمثابة منبع خصيب ، ومدد جديد ، ولعلهم أحسوا بأن الشعر قد استنفد موضوعاته القديمة ، ومل كل مصطلحاته الأولى ، وأصبح يبدو للناس كما يبدو الرجل الهرم ، فأرادوا بذلك ان يعيدوا اليه شيئاً من الفتوة ، ويستكثروا من ثروته اللغوية ، ومنذ ذلك الوقت أصبح هذا النوع من الشعر ميدانا يتسابق فيه الشعراء .

نعم ، قد أضعف هذا الاتجاه فيما بعد ، القيمة الادبية للشعر ، وذلك حين استحال الى نوع من النظم الجاف ، الذى يتركز على الفكرة الخالصة ، ويبعد بعداً تاماً عن الخيال ، والعواطف ، والاحساس . وهنا يجب أن نستدرك سريعاً فنقرر أن أدباء الاسكندرية لم يعرفوا هذه المرحلة بعد ، ولم يدرك عصر الاسكندرية ، بل ولا عصر روما من بعدها الا عظمة هذا النوع من الشعر ومجده .

وكذلك نجد من الاتجاهات الجديدة الواضحة عند أدباء الاسكندرية ان

الشعر أصبح فى نفسه غاية تقصد لذاتها ، فهم الذين اوجدوا بحق هـذا المبدأ المشهور « الفن للفن » ، فلم يكونوا ليستكثروا مايبذلونه من وقت وجهد طويلين فى سبيل صقل الشعر ، او فى البحث عن الأوصاف الجميلة ، أو فى ابتكار المحسنات البديعية الرائعة .

ولم يكن هذا الاتجاه الخطير فى الواقع إلا صدى لتعاليم ذلك العصر ، وإجابة لرغبة كانت تتغلغل فى نفوس الكثيرين : تلك هى تعاليم « زينون Zenon » و « أبيقور Epicurus » حينما بدأت المدينة تتحلل من قيود حكم الدولة ، وبدأ الانسان يلقى عن كاهله أعباء قوانين المجتمع المرهقة الثقيلة ، ويحس بكيانه فى الوجود ، ويشعر بحاجته الملحة الى الحرية والاستقلال . انتشرت هذه التعاليم وتجاوبت أصداؤها فى مختلف المدن الجامعيه ، ثم تناولت آثارها كل أنواع الفنون . فكان هناك مايشبه الثورة على القديم والنزوع الى الجديد المشبع بروح الصراحه والحرية والاستقلال . ولقد كانت جامعه الاسكندرية بلا شك مركز هـذه الثورة الأولى كما كان أدباؤها وعلماؤها هم قادتها وزعماؤها .

هذه الأنواع الجديدة فى فن القول استلزمت بطبيعة الحال من أدباء الاسكندرية أنواعاً جديده فى الصيغه وفى الفكر ، وفى أوزان الشعر ، إذ لم تكن أوزان الشعر عند القدامى مثل مانعهده فى الأدب العربى ، بل كان لكل نوع من فن الشعر وزن خاص يلائمه ، ويتمشى معه طولا وقصراً .

هذه الحركة الادبية الواسعه ، وتلك الاتجاهات الجديدة المتعددة ، أوجدت عند أدباء الاسكندرية مذهباً خاصاً فى الادب أثر عنهم وعرف باسم المذهب الاسكندرى ، ويمكن تحديد هذا المذهب بأنه (العناية الشديده والحرص التام على جمال اللفظ) .

انتشر هذا المذهب بسرعه فى كل المدن الجامعيه من حوض البحر الابيض المتوسط ، وبدأ يغزو معاقل الادب القديمه معقلا بعد آخر ،

فتتلمذ عليه كثير ، وأخذت آثاره تظهر فى أثينا وفى رودس وفى كوس وفى برجامم وفى أنطاقيه وفى سيراكوز وفى قورين وفى روما .

وإنه لمن المؤسف حقاً أن لم يترك أدباء الاسكندرية آثارا كبيرة ، ولم تبق لنا الاحداث الا بعض قطع جميلة ، ولكنهم مع ذلك قد تركوا كثيراً من التلاميذ الذين اعتنقوا مذهبهم ، وواصلوا عملهم ثم نقلوا عنهم ، هؤلاء التلاميذ هم أدباء الرومان : ومن هنا ندرك فى يسر مدى صدق هذا التعبير (Rome était l'héritier d'Alexandrie, comme Alexandrie était l'héritier d'Athènes).

أى أن (روما كانت وارثة الاسكندرية كما أن الاسكندرية كانت وارثة لأثينا) وكذلك نستطيع ان ندرك قيمة هذه العبارة المأثورة التى يرددها الكاتب الفرنسى « Couat » فى كتابه الذى سبقت الإشارة اليه ص ٥١٧

" Les Alexandrins ont rendu à la Grèce héroïque le service que rendirent les Latins aux Alexandrins eux-mêmes; c'est par ceux-ci ou par leurs imitateurs que nous le connaissons".

أى (لقد أدى الاسكندريون الى اليونان الابطال نفس الخدمه التى أداها اللاتينيون الى الاسكندريين أنفسهم ، ونحن لم نعرف هؤلاء الاسكندريين الا بواسطه اللاتينيين أو بواسطه من قلدهم) .

ومن هنا ندرك أيضا مبلغ الحاجه لمعرفه الثقافه الرومانيه القديمه بالنسبه للمصريين ، فمعارفنا وآثارنا . وثقافتنا فى أيام نهضه الاسكندرية لاتزال تتراءى لنا كحلقه مفقوده من سلسلة حضارتنا الطويلة . ولن توجد هذه الحلقه إلا بدراسه الثقافه الرومانيه القديمة ؟

دكتور محمد حمدى